الحمار الذهبي

(أو التحولات)

تأليف: لوكيوس أبوليوس

ترجمة: عمّار الجلاصي



الحمار الذهبي

(أو التحولات)

تأليف: لوكيوس أبوليوس
ترجمة: عمّار الجلاصي



أعده للنشر موحمد وٴمادي

ملاحظة: لقد إعتمدنا نسخة السيد الجلاصي لم فيها من دقة، بالرغم من أن الكتاب كان قد ترجم مرتين، الأولى: من قبل الأستاذ علي فهمي خشيم عن الإنجليزية التي بدورها كانت قد ترجمت عن اللاتينية، والثانية: من قبل الأستاذ أبو العيد دودو عن الفرنسية التي كانت قد ترجمت عن اللأتينية، وبهذا تكون النسخة التي بحوزتنا الوحيد المترجمة مباشرة عن اللأتينية.

مقدّمة المترجم

"الحمار الذّهبيّ أو التّحوّلات" ثانية روايتين خلّفهما لنا الأدب اللاّتينيّ. مؤلّفها لوكيوس أبوليوس، أحد أشهر كتّاب القرن الثّاني وُلد في مادورة (مدوروش بالجزائر حاضرا) في 124 م. تعلّم بقرطاج وأثينا ثمّ أقام، وربّما اشتغل محاميا، بروما. ثمّ عاد إلى إفريقية، وتزوّج بأوية (طرابلس) أثناء سفر إلى الإسكندريّة أرملة غنيّة، رفع ضدّه ابنها وحمو أخيه وعمّه قضيّة بتهمة تعاطي السّحر في محكمة صبراتة 159. فكتب "مرافعة عن نفسه". ثمّ عاش في قرطاج حيث كتب عدّة خطب ومقالات جمع بعضها تحت اسم "المنتخبات". له كذلك كتب فلسفيّة: "أفلاطون ومذهبه"، "في إله سقراط"، "في الكون". كما تنسب إليه كتب أخرى في مجالات عدّة. يرجّح أنّه كتب روايته هذه بعد 170، وأنّه اقتبسها من كاتب يونانيّ بقي ملخّص من قصّته يُنسب للقيانوس السّموساطيّ معاصره السّوريّ، لكنّه صاغها بأسلوبه الفذّ وأعطاها إلى جانب طابعها الشّيّق بعدا فلسفيّا.

وممّا يعطي قصّته نكهة فريدة مزاوجته بين أساليب شتّى من تشويق وفكاهة وإثارة جنسيّة ورعب وفظاعة وفخامة وجلال. ولها كذلك قيمة تاريخيّة ثابتة فهي مصدر مهمّ لمعرفة

ديانات المسارّة المنتشرة في الإمبراطوريّة الرّومانيّة في ذلك العصر والّتي أثّرت في المسيحيّة، وعلى الأخصّ ديانة إيزيس. ومن الطّريف أنّ بطلها حمار أو بالأحرى إنسان مُسخ حمارا لكنّه احتفظ بقدراته العقليّة، ونقلته الصّدف بين أيد شتّى، فشارك من خلال تنقّله في عدّة مغامرات وشاهد أخرى أو سمع بها. فهو بنحو ما كبطلي الأوديسّة والإنياذة. وتصف لنا الرّواية، في أسلوب غلب عليه الطّابع الهزليّ، معاناة الحمار على أيدي النّاس، صغارهم وكبارهم، ومن كلا الجنسين. لكن قرائن عديدة تحمل على الاعتقاد بأنّ أبوليوس أراد من خلال مغامرات حماره الممتعة تبليغنا رؤيته الأفلاطونيّة، والأقرب بالأحرى إلى الأفلاطونيّة المحدثة وللمذاهب الغنوصيّة، لمعنى الحياة الإنسانيّة.

قبل الإفساح لأبوليوس نودّ الإشارة إلى أنّا ألحقنا بالرّواية تراجم للشّخصيّات الميثولوجيّة والتّاريخيّة والأماكن الواردة وتفسيرا لمعاني أسماء شخصيّات الرّواية "وجلّها يونانيّة، وهي جزء من أساليب الفكاهة عنده) وحواشي وملاحظات (مشار إلى مواضعها بعلامة ( ) ". وكذلك بعض الأفكار حول أصول الرّواية وصورة الحمار في أدبيّات الشّعوب وعن معنى الرّواية الفلسفيّ. كما وضعنا عناوين للفقرات، وفرّقنا بين جملها بالتّنقيط أو بعلامة × لتيسير الرّجوع إلى النّصّ اللاّتينيّ لدى الحاجة). وحاولنا تقديم ترجمة قريبة من النّصّ الأصليّ قدر الإمكان حتّى في بنية الجمل. وذلك أمر عسير لاختلاف اللّغتين، خاصّة أنّ تراكيب أبوليوس معقّدة، ومليئة بالصّيغ البلاغيّة من جناس وسجع ومجاز (وقد ذكرنا أبرزها) وتحمل أحيانا. وبصفة

متعمّدة، أكثر من معنى. وهو يسرف في استعمال التّصغير والمفعول فيه المطلق (الشّبيه بالحال الوارد جملة عندنا). واللّه وليّ التّوفيق.

11 تشرين الأوّل 2000 . عمّار الجلاصي

الكتاب الأول

1-1 تمهيد

ها أنا سأجمع لك في هذا الخطاب المؤلّف على النّمط الميليتيّ(1) قصصا متنوّعة وسأشنّف أذنيك الجاملتين بهمس لطيف إن لَم تأنف النظر إلى هذه الطَرائف الّتي خطّتها على ورق البرديّ المصريّ حذاذة يراع النّيل. فتشاهد معجَبا تقلّب أحوال البشر وهيئاتهم: تتغيّر ثم ترتدّ فتعود كما كانت. أستهلّ مجيبا ببضع كلمات عن سؤالك من أنا: أنا سليل أسرة عريقة استوطنت تلّ هيمتّوس* الأتّيكيّ* وخليج أفورية* ومنطقة التينار* الإسبرطيّة، وهي ربوع طيّبة كريمة أسّس أمجادها الخالدة بنوها الأكرمون. هنالك تعلّمت منذ فجر الطّفولة اللّسان الأتّيكيّ؛ ثمّ اغتربت في مدينة اللاّتين حيث عكفت على دراسة لغة الرّومان القحّة بجهد جهيد وبدون معلّم يقود خطاي. لذا أستميحك معذرة إن أسأت لقلّة خبرتي التّحدّث

(1) النّمط الميليتيّ: لون أدبيّ يقوم على جمع قصص ومغامرات تحتوي على إثارة جنسيّة عادة، نشأ في مدينة ميليتوس في القرن الثّاني ق م. ضاع كتاب أشهر ممثّليه أرستيدس الّذي ترجم فورا إلى اللاّتينيّة.

بهـذه اللّغة الأجنبيّة الغريبة عنّي(1) . وتغيير اللّغة في حدّ ذاته يطابـق منهج الفـنّ البهلوانيّ الّذي نحن بصـدده. ها نحن نبدأ قصّة من الطّراز اليونانيّ: فتنبّه أيّها القارئ، وستستمتع(2).

1-2 لقاء على طريق هيباتة

كنـت أقصـد، لقضـاء حاجـة، تسّـالية(3)، فإليهـا تنتمي أسـرة أمّي الّتي شـاد أسسها أفلوطرخس* الشّـهير وابن أخيه الفيلسـوف سكسـتوس* صانعـا مجدنا. بعدمـا اجتزت جبالا شـاهقة وسـهولا منبسـطة ومراعي نديّة وحقولا مدرة، أركب حصانـا محلّيّـا ناصع البيـاض، رأيته قد نال منـه الإعياء. ولأزيل كذلـك عنّي كلل الجلوس، نزلت على قدميّ لأتمشّـى وأتنشّـط، فنشّـفت عرق حصاني ماسـحا جبينه بعنايـة، وربّتّ برفق على

(1) اعتـذار أبوليوس عـن جهله باللاّتينيّة: هو طبعا تواضع أدبيّ نجد مثله عند كبـار الأدباء (انظر المعرّي مثلا في "رسـالة الملائكة"). فهو من فرسـان البيان اللاّتينـيّ بل يكتب في شـتّى المواضيـع باللّغتين كما يؤكّد مثـلا في المرافعة وفـي المنتخبات 9؛ والجملة الأولى وحدهـا تبيّن تملّكه ناصية البيان: At ego tibi sermone isto Milesio varias fabulas conseram auresque tuas benivolas lepido susurro permulceam, modo si papyrum Aegyptiam argutia Nilotici calami inscriptam non spreveris inspicere انظـر إلى السّـجع، وانظـر إلـى التّناظر حتّى فـي نوع الكلمات من أسـماء وضمائـر ونعوت وفي طولها، وكذلك إلى إشـارته الخفيّة إلى مضمون روايته: فما عبثا أتت الإشـارة إلى مصر وإلى حذاذة يراع النّيل (أو ربّما إلى مصادر مصريّة إلى جانب اليونانيّة). ثمّ انظر ابتداءه الرّسالة كأنّها أتت تتمّة لحديث سابق.

(2) ستسـتمتع: التّمهيد شبيه بما نجد في مسـرحيّات ترنتيوس حيث نجد نفس الدّعوة إلى الانتباه والوعد بالمتعة.

(3) ورود الرّوايـة بضمير المتكلّـم: أراد أبوليوس إعطاءنا معلومات عن نفسـه وفكره، وإضفاء الواقعيّة عليها وذلـك مطلوب في النّصوص الفكاهيّة، ونجده في روايات سـابقة أو معاصرة (سـاتيريكون لبترونيوس، ليوكيبس وكليتوفون لتاتيـوس). ونجـده كذلـك فـي فـنّ المقامـة فـي الأدب العربـيّ (الهمذانيّ، الحريريّ...)

أذنيه، ثمّ نزعت لجامه، وقدته الهوينى ليستريح من وعثاء السّفر ويطلق مـا احتبس لديه مـن الخضام الطّبيعيّ المألـوف. وبينما راح حصانـي يقتطف غداءه، مادًا رأسـه على جانب الطّريق عبر الحقول، وجدت نفسي ثالث رفيقي سفر كانا بالصّدفة يسبقاني بمسافة قصيرة. أنصتّ بفضول إلى حديثهما فإذا أحدهما يقول ضاحـكا: "كفى يا صاح من هذه الأكاذيب السّـخيفة الأكبر من أن تصدّق". ما إن سمعت ذلك حتّى أثار ظمئي إلى الجديد؛ فقلت: "عفوا يا صاحبَي الدّرب! هلاّ أشـركتماني في حديثكما! لسـتُ فضوليّـا وإنّما أودّ معرفة ما تخوضان فيـه، كلّه أو أكبر قدر ممكن منه، عسـى أن تخفّـف طرافة قصصكما الشّـيّقة وعورة التّلّ الّذي شرعنا في ارتقائه."

1-3 نقاش حول عجائب السّحر

غيـر أنّ المتكلّـم الأوّل اسـتأنف: "مـا هذه التّرّهـات، لعمري، بأصحّ من الادّعاء بأنّ بمقدور التّعاويذ السّـحريّة أن تقلب مجرى السّيول الدّافقة، أو تمسـك البحر ساكنا، أو تكتم أنفاس الرّياح، أو توقف دوران الشّـمس، أو تقشـد زبد القمر#، أو تقتلع النّجوم أو تلغي النّهار وتجعل اللّيل سـرمدا." فتشجّعت وتدخّلت قائلا: "واصل أيّهـا الرّاوي حكايتك، أرجـوك؛ ولا يمنعْك غيظ ولا أنفة!" وللآخر: "أمّا أنت، فربّما رفضـت أخبارا صحيحة صامًّا أذنيك مقرّا فـي العناد فـؤادك. إنّك لعمري قليـل الدّراية بتلـك الأمور الّتي تعدّها أباطيل بناء على أفكار مسبقة خاطئة، لأنّها تبدو جديدة على سـمعك أو طارفة على بصـرك أو صعبة على فهمك وفوق متناول إدراكك. ولو تفحّصتها بمزيد من التّدقيق لوجدتها جديرة

بالثّقة نظريّا سهلة التّحقيق عمليّا.

1-4 مثال ألعاب المشعوذين

أنا مثلا كنت أتعشّى إحدى الأماسيّ في جماعة قرص شعير وجبن فأردت من باب المراء التهام لقمة أكبر ممّا اعتدت شيئا ما؛ فكدت أموت مختنقا بعدما التصقت بحلقي اللّقمة الدّبقة وسدّت نفَسي. مع ذلك رأيت مؤخّرا قبيل الحادثة بعينيّ هاتين، في أثينة أمام رواق البقيل* لاعبا مشعوذا يبتلع سيف خيّالة عريضا لهذما من شفرته الحذمة. ثم ما لبث، مقابل بضع دوينقات، أن أغمد في أحشائه حربة صيد من الجهة الفتّاكة. وإن هي إلاّ لحظة حتّى برز، على طرف قضيب الرّمح الّتي انغرزت في بطنه قناتها لتخرج من قذاله، صبيّ غضّ الجمال يؤدّي رقصة رشيقة غنجاء، متلوّيا في انعطاف وارتخاء، مثيرا إعجاب كلّ الحاضرين. كأنّه في تثنّيه تلك الحيّة المباركة الملتفّة في انسياب حول صولجان إله الطّبّ(1) المشذوب. لكن دعنا من ذلك وواصل القصّة الّتي بدأتها، أرجوك؛ سأصغي إليك وحدي مصدّقا نيابة عنه، وسأشركك في غدائي عند أوّل حانة نتوقّف فيها؛ أقترح عليك هذه الصّفقة."

1-5 قصّة أرسطومانس

ردّ الرّجل: "أقبل بالتّأكيد ما عرضت بسرور وطيب خاطر(2)؛

(1) إله الطّبّ: أسكولابيوس ابن أبولّون، صعقه يوبتر بعد إعادته ميّتا إلى الحياة. يذكر أبوليوس في المرافعة 55 أنّه ألقى محاضرة عنه في أوية، وفي "المنتخبات" 18 نشيدا ألّفه باللّغتين اليونانيّة واللاّتينيّة له.

(2) بسرور وطيب خاطر: aeque bonique أو "بلباقة وطيبة" إن كان المنعوت

لذا سأعيد عليك ما بدأت؛ لكن سأقسم لك أوّلا بهذه الشّمس الإلهيّة المطّلعة على كلّ الكائنات ألاّ أذكر سوى ما ثبت عندي يقينا. ولن يساوركما فيه شكّ بعد وصولكما إلى أقرب مدينة في تسّالية*. فهناك تتناقل ألسنة النّاس تلك الوقائع الّتي تمّت بمرأى الجميع. لكن لتعلما أوّلا من أيّ بلاد أنا ومن أكون، أقول: أنا من إيجيون*. أمّا عن المهنة الّتي أعيش منها، فاعلما أنّي أذرع تسّالية وإيتولية* وبويتية* في كلّ صوب للاتّجار بالعسل والجبن وما شابههما من السّلع الخاصّة بالحانات. لذا لمّا علمت بوجود جبن طازج زكيّ المذاق معروض للبيع بسعر مغر في هيباتة*، أهمّ مدن تسّالية* قاطبة، أسرعت فورا لشرائه كلّه. لكن، وكما يحدث عادة، خيّب انطلاقي بالرّجل اليسرى أملَ الرّبح المرجوّ، فقد اشترى كلّ المعروض دفعة واحدة في اليوم السّابق تاجر كبير يدعى لوبوس*، لذا توجّهت عند حلول المساء إلى الحمّام منهكا من عجلتي الّتي ضاعت سدى.

1-6 لقاء مفاجئ

وإذا بي أشاهد صديقي سقراطَ* جالسا على الأرض، ملتحفا رداء ممزّقا لا يكاد يستره، وقد غيّر ملامحه الهزال حتّى صار يشبه أولئك البائسين الّذين يدفعهم نكد الحظّ إلى التّسوّل في السّاحات العامّة. اقتربت منه وقد داخلتني بشأنه الشّكوك، رغم معرفتي الجيّدة به وعلاقتنا الحميمة، وقلت: " عجبا، ما خطبك يا عزيزي سقراط؟ ماذا تفعل هنا؟ وأيّ خزي هذه الّذي أرى؟ في بيتك بكاك وناداك النّداء الأخير الأهلون منذ مدّة وعيّن

فعل "عرضت" لا "أقبل".

قاضي النّاحية(1) كفلاء لأبنائك. وزوجتك الّتي أدّت لك الطّقوس وأذواها الحداد الطّويل وحذلت عيناها، يُكرهها أبواها اليوم على التّعزّي عن كآبة بيتك بأفراح زواج جديد. بينما أراك هنا، يا لعارنا، شبحا عائدا من غياهب العالم السّفليّ*." أجاب: " أخي أرسطومان* لا إخالك تجهل تقلّبات الحظّ الزّحلاقة وتبدّل أحواله وتناوب صروفه " وغطّى بردائه الخلق وجهه المحمرّ من الخجل وهو يقول ذلك، بحيث عرّى جسمه ما بين السّرّة والخاصرة. فلم أطق مشهد بؤسه الممضّ ومددت إليه يدي محاولا إيقافه.

1-7 قصّة سقراط

لكنّه لبث كما كان وستر وجهه قائلا :"كلاّ كلاّ، ذر الحظّ(2) يسعد أطول بنصب النّصر الّذي أقام لنفسه." أخيرا نجحت في حمله على اتّباعي، وفي نفس الوقت نضوت أحد شقّي ردائي وسارعت أكسوه به أو أستر عريه، لا أدري ما الأصحّ. وحملته فورا إلى الحمّام، فطفقت أدلّكه وأغسله، مسخّرا كل طاقاتي لخدمته، حتّى أزلت عنه طبقة سميكة من الأوساخ. بعدما وطّبته جيّدا، أخذته إلى فندق، مسندا جسمه المكدود بمشقّة لتعبي أنا نفسي؛ فأرحته على فراش، وأشبعته من الطّعام وأنعشته بالشّراب، وسلّيته بطريف الفكاهات. حتّى انفتحت شاهيّته للحديث والضّحك، واستخفّه ظريف الهزل، واستثاره لطيف

(1) قاضي النّاحية: juridicus provincialis خطّة وجدت منذ عهد أغسطس، ألغيت وأعادها الامبراطور مرقس أورليوس 161-180؛ في مصر كان يساعد الوالي الّذي يدعى هناك praefactus لا proconsul.

(2) الحظّ: المقصود هنا الحظّ مشخّصا في ربّة الحظّ، وهو كما سنرى حاضر طوال رواية أبوليوس، وله دور مماثل للقدر في إنياذة ورجيليوس. يعطيه مكيافلّي في "الأمير" أهمّية مماثلة.

المزاح. لكنّه ما لبث أن أخرج من أعماق صدره زفرة حارّة وضرب بيمينه بشدّة على جبينه وقال: "يا لبؤسي، أنا الّذي كنت أَنشُد متعة الفرجة على عرض مصارعة تناقلت خبره ألسنة النّاس. كما تعلم ذهبت إلى مقدونية* للاتّجار، وعدت مثريا بعد التّفرّغ لأعمالي بها عشرة أشهر. وقبل وصولي إلى لاريسة* بقليل، بينما كنت أقصد عبر طريق مختصرة ذلك العرض، هاجمني في شعب عميق منعزل لصوص عتاة، ففررت بجلدي مجرّدا من كلّ أموالي. نزلت، وأنا على تلك الحال في حانة لامرأة تدعى مِروة*، مسنّة لكنّها احتفظت بظُرفها، فذكرت لها أسباب حالتي وأخبار رحلتي الطّويلة وعودتي المنكودة وحادثة السّلب المؤسفة. فطفقت تعاملني بمروءة، مقدّمة لي طعاما مريئا ومجّانيّا(1) ، ثمّ لم تلبث وقد أثارتها نار الشّهوة أن قاسمتني مضجعها. فلم يكن، يا لبؤسي، سوى ذاك اللّقاء الوحيد لأقع في عِشرة تلك العجوز الوبيئة. واضطررت إلى التّنازل لها عن كلّ ما لديّ، حتّى الملابس الّتي تركها لي أولئك اللّصوص الرّحماء لستر جسمي، وكذلك الدّوينقات الّتي كنت أكسبها من العتالة بفضل ما بقي من حيويّتي، إلى أن أوصلتني تلك الزّوجة العروب(2) وحظّي السّيّء إلى الحالة الّتي رأيتني عليها قبل قليل."

1-8 ساحرة عليمة

قلت: "إنّك جدير لعمري بمعاناة أقصى الأنكال، إن كان يوجد

(1) مريئا ومجّانيّا: gratae et gratuitae جناس مضارع.

(2) الزّوجة العروب: يستخدم أبوليوس قلب المعنى antiphrasis كالمدح بمعنى الذّمّ ونجد ذلك في العربيّة أيضا.

حقّا أقصى ممّا ذكرتَ، إذ آثرت على بيتك وبنيك ملاذّ الشّهوة وموموسا مترهّلة." ردّ صاحبي، واضعا سبّابته على فمه، ومتسمّرا في ذهول: "سكوتا، سكوتا". وبعد أن تلفّت حواليه ليتأكّد من إمكانيّة التّحدّث بأمان، تابع: "حسبك! على نفسك تجني بفلتة لسانك اللّجوج في حقّ امرأة تملك قوى خارقة." هتفت: "ماذا تقول، ويحك! أيّ امرأة هي، ملكة الفنادق الجبّارة الّتي ذكرت؟" أجاب: "ساحرة وعرّافة قادرة على إنزال السّماء ورفع الأرض، على تجميد الينابيع وتذويب الجبال، على تصعيد الأشباح وتنزيل الآلهة، على إطفاء النّجوم وإضاءة سُدف الترتار*." قلت: "أرجوك، نحّ ستار التّمثيل، واطو هذا السّجف المسرحيّ وأفصح لي بالكلام العاديّ." ردّ: "أتودّ سماع هذا المثال أم ذاك، بل عديد كراماتها؟ إنّ إضرام هواها، لا في سكّان هذه النّواحي فقط، بل والهنود والأحباش بفريقيهم وحتّى سكّان أقاصي الأرض غيض من فيض علمها وألعاب صبيان عندها: إليك ما صنعتُ على مرأى من عدّة شهود.

1-9 أمثلة من سحر مروة

بكلمة واحدة مسخت عاشقا هجرها وتعلّق بسواها قندسا. لأنّ هذا الحيوان يلجأ، خشية الوقوع في قبضة مطارديه إلى بتر أنثييه، فأرادتْ أن يحصل للرّجل نفس الأذى جزاء عدوله عنها إلى سواها. كذلك حوّلت جارا لها خمّارا إلى ضفدع، لأنّه منافس لها، واليوم يدعو هذا الشّيخ وهو يسبح في زقٍّ من خمره، متخبّطا في الثّفالة، روّاد حانته القدامى إلى خدماته في نقيق أجشّ(1). وشخص آخر محام رافع ضدّها مسخته كبشا،

(1)خدماته/ أجشّ: roncis/raucus جناس مضارع.

واليوم يصول ذلك الكبش في المحاكم. كذلك حكمت على زوجة عشيقها الحبلى الّتي شتمتها بأن تظلّ حاملا إلى الأبد بإغلاق رحمها وإرقاد جنينها. والمسكينة اليوم مثقَل منذ ثمانية أعوام، كما يعدّ لها الجميع، وقد مغّطها حِملها كأنّها ستضع فيلا.

1-10 ساحرة تتصدّى لمدينة بأكملها

لمّا آذت الكثيرين مرارا وتكرارا، عمّ السّخط واتّخِذ يوما قرار بإقامة حدّ الرّجم عليها بصرامة من الغد. فأحبطت الخطّة برقاها، ومثل ميدية* الّتي بعد الحصول على مهلة يوم واحد من كريون*، أحرقت باللّهب المنبعث من تاج (منافستها) البيت كلّه والبنت مع أبيها العجوز. ألقت هذه السّاحرة في حفرة(1) طلاسم مجتلبة من القبور، كما روت لي مؤخّرا هي نفسها تحت تأثير السّكر، فحبستهم جميعا في ديارهم بقوّة سحرها الصّامتة، فبقوا فيها طيلة يومين عاجزين على كسر الأقفال أو قلع الأبواب أو ثقب الجدران. إلى أن جأروا بصوت واحد ضارعين، مقسمين بأغلظ الأيمان ألّن يرفعوا أبدا أيديهم لإيذائها وأن يقدّموا لها العون إن فكّر أحد في مسّها بسوء. إذّاك هدأت سورة غضبها فعفت عن أهالي المدينة؛ إلاّ مدبّر تلك المؤامرة، فقد نقلته في ليلة ظلماء مع البيت برمّته، بجدرانه وأرضيّته وأسسه وفي هيئته، مغلقا إلى مدينة أخرى تقع على بعد مائة ميل على قمّة جبل وعر، ومن ثمّ شحّ ماؤها. ولأنّ مبانيها المتراصّة الغاصّة بالسّكان لا تدع مجالا لساكن جديد، ألقت بالبيت أمام باب المدينة وانصرفت."

(1) حفرة: أوديسّيوس أيضا ألقى في حفرة بعض الموادّ للنّزول إلى العالم السّفليّ. أوديسة 11: 25-53

1-11 عمليّة اقتحام ليليّة

هتفت: "ذكرت يا عزيزي سـقراط أشـياء عجيبـة وإن كانت غرابتها لا تنقص شيئا من فظاعتها. حقًّا لقد ألقيتَ في روعي وجلا غير(1) يسـير، بل هلعا شـديدا، ووخزتني برمح لا بشوكة، وأخشـى أن تعلم تلك العجوز بعون قواها الخارقة بهذه الأحاديث بيننـا. فهيّا ننم، وفي الفجر يكون قد خفّ تعبنا، فنهرب من هنا إلى أبعد ما يمكن." لم أفرغ من نصحي حتّى كان سقراط العزيز يغـطّ في النّـوم، محدثا شـخيرا عاليا، جرّاء سـكره غير المعتاد وإرهاقه الطّويل. فرددت الباب وعشّـقت المزلاج وسوّيت مفرشـي علـى الأرض خلـف المفصّلة ورتدتـه جيّدا، ثمّ استـلقيت فوقه. لكنّـي في البداية لبثتُ أرِقا متوجّسـا لبعـض الوقت، ثمّ قرابة الهزيـع الثّالث أغمضت عينيّ. فما كـدتُ أغفو حتّى فُتح الباب فجأة بقوّة أكبر من أن يتصوَّر أنّه عمل لصوص، بل انهدّ بالأحرى بعدما هُشّمت مفصّلتاه وقُلعتا من عضادتيهما. فوقع من قوّة الدّفعة سـريري النّخر القصير والمجرّد من إحدى قوائمه مسـتقرّا على الأرض ودحدرني منقلبا عليّ ليغطّيني.

1-12 مروة تدرك حبيب القلب الغادر

شـعرت إذّاك أنّ بعـض الأحاسـيس بطبيعتهـا قد تنقلب إلـى أضدادها؛ كثيـرا ما تتولّـد الدّموع مثلا مـن الفرح. كذلك لم أتمالك نفسـي، وقد استحلتُ من أرسـطومان سلحفاةً، من الضّحـك. وفيما أنا أرتقب ما قد يحـدث، قابعا في ركام القذارة،

(1)غير يسـير: أسلوب آخر يستخدمه بكثرة أبوليوس: التّلطيف litotes ويصل أحيانا نفي النّفي.

محميّا بحسن تدبّر مفرشي. رأيت امرأتين متقدّمتين في السّنّ. تحمل إحداهما مصباحا مضيئا والأخرى إسفنجة وسيفا مجرّدا. فأحاطتا بسـقراط الغـارق في النّـوم. ابتدرت صاحبة السّـيف الأخـرى: "هوذا، يا أخيّتي بنثية*، إنديمون* العزيز. هوذا كتميتوس* الأغـرّ الّذي لها أيّاما وليالي بزهرة شـبابي. هـوذا الرّجل الّذي لم يكفه بعدما اسـتخفّ بحبّـي هلْبي وثلبي، ها هـو يهمّ كذلك بالهرب. فلم يبق لي، كما ترين، سوى بكاء وحدتي أبد الدّهر، مثل كالبسـو* بعدما تركها أوديسّـيوس* معدن المكـر". ثمّ أضافت مشـيرة صوبي بيدها، منبّهة إليّ بنثيـة: "وهوذا نصيحه الأمين الّـذي دبّر فراره وهـو يقبع الآن جاثيا على الأرض تحت سـريره إلى الموت أقـرب منه إلى الحيـاة، لاحظا كلّ ما يجري، يظنّ بوسـعه الإسـاءة إليّ دون عقاب. سـأجعله لاحقا، بل قريبا، بل فورا يتوب عن تهكّمه الماضي وفضوله الحاضر."

1-13 انتقام ساحرة

لمّا سـمعت ذلك أحسسـتُ يا لبؤسي عرقا باردا يسيل على كلّ جسمي، وقشعريرة تسري فيه انخضّت منها أحشائي، حتّى خلـتُ المفرش المهتزّ مـن ارتجافي يرقص في تشـنّج فوق ظهري. لكـنّ بنثية، بورك فيهـا، ردّت: "لِم لا نبدأ بالأحـرى بذاك يا أختاه فنقطّـع أوصاله علـى غرار كاهنـات باخوس* أو نبتـر ذَكره بعد تقييـد أطرافه؟" × ردّت مروة- أدركت فعلا أنّها المرأة الّتي ذكر لي سقراط في قصّته-: "كلاّ، ليبق هذا على الأقلّ فيحثوَ على جثّة ذلك التّعيس قليلاً من التّراب." ثمّ أدارت رأس سـقراط إلى الجهة المقابلة فأغمدت في جانب عنقه اليسـار السّيف حتّى المقبض.

وتلقّت في قربة صغيرة أدنتها منه الدّم الشّـاخب بعناية بحيث لم تنسـكب منه قطرة واحدة بالخارج؛ شاهدت كلّ ذلك بعينيّ. كذلك، وكيلا تغيّر في ظنّي شيئا من طقوس التّضحية، أولجت مـروة الطّيّبة يمينها في الجرح سـابرة أحشـاء رفيقي فاسـتلّت قلبه، بينما أصدر المسـكين الّذي نُحرت حنجرته بطعنة السّيف شخيرا كالحشرجة وسلّم حشاشته. ضمّدت بنثية بالإسفنجة الجرح الفاغر كالأخدود قائلة: "يا إسـفنجة يا ابنـة البحر، إيّاك والانتقـال إلى النّهر!" بعـد الانتهاء من تلك الأعمـال، انصرفتا عنه، فقلبتا مفرشي، ثمّ أقعتا مفرشحتين على وجهي، فأفرغتا مثّانتيهما، حتّى ضمّختاني بفيض بولهما المقرف.

1-14 مشروع الفرار

ا أن اجتازتـا العتبـة، حتّـى انتصب الباب سـويّا في وضعه السّابق، فاسـتقرّت المفصّلتان فـي مخلعيهما ورجـع التّرباس إلى مزلقته وعاد لسـان التّعشيق إلى مزلجه. أمّا أنا فلبثت على حالي طريح الأرض بلا حراك عاريا مقرورا، ومبلّلا بذلك السّـائل المحّم، كما لو خرجت لتوّي من رحم أمّي، بل شـبه ميّت خالفا ذاتي في شـبه حياة برزخيّة، مرتقبا عذاب الصّلب المعَدّ لي بلا ريب. حدّثت نفسـي: "ماذا سـيحدث لي عندما يُكتشـف في الصّباح هذا الذّبيح؟ ومن تُرى يصدّقني إن رويت حقيقة ما جرى؟ سيقال لي حتما: × "كان بإمكانك علـى الأقلّ أن تطلب النّجـدة، إن عجزت كما تزعم، وأنـت رجل بمثل هذه الضّلاعة، عن مقاومة امرأة؛ تبّا لك، أيُذبح شخص أمام عينيك، وتبقى ساكتا؟ × لِـم لـمْ تُزلك أنت أيضا عمليّة قتل شـبيهة؟ لِم لم تتخلّص

منك هذه الوحشـيّة الفتّاكة حتّى خيفة تبليغك عنها كشاهد علـى الجريمة؟ لقد نجوتَ من الموت، فلْتعد إليه الآن إذن!" × ذاك ما كنـت أقلّب مع نفسـي بينما بدأ اللّيل يفسـح للنّهار؛ فبدا لي أنّ أفضل ما أفعل في حالتي أن أسـرع بالفرار خفية قبل مطلع النّهار وأواصل متهيّب الخطى مساري. أخذت صرّتي وأدرت المفتاح وسـحبت المـزلاج. لكنّ ذاك البـاب العاقل الأمين الّـذي فُتح في اللّيل تلقائيّا لم ينفتح لي إلاّ بعسر بعد إيلاج المفتاح فيه مرارا.

1-15 فشل المحاولة

هتفت: "أيـن أنت يا رجل؟ افتح لي باب الفنـدق، أريد الذّهاب قبـل طلوع النّهـار!" فردّ البوّاب الّذي افتـرش الأرض قرب مدخل الفندق، نصف نائم: × "مـاذا؟ أتجهل أنّ الطّرق مليئة باللّصوص لتدلج في السّـحَر؟ إن كنت تبغي الموت، لإحساسـك قطعا بوزر جـرم أتيت، فما لي رأس يقطينة حتّى أموت من أجلك"(1). قلت: "لـم يبق على مطلـع النّهار كثير؛ ثمّ ماذا ينتـزع اللّصوص من مسـافر معدم مثلي فقير؟ أم تجهل يا أحمق أنّ عشرة مصارعين لا يسـتطيعون سـلب شـخص عارٍ؟" × ردّ الرّجل خدرا وسـنان، بعدمـا انقلب على جنبه الآخـر: "منْ أين لي أن أعرف ما لو كنت تفرّ بحثا عـن مخبئ بعدما ذبحت رفيقك، ذاك الرّجل الّذي نزلت معه البارحة للمبيت هنا؟" × سـاعتها رأيت الأرض تنشـقّ تحتي عـن غياهـب التّرتار* وفيها الكلـب كربروس* يتحـرّق لالتقافي. خطر إذّاك ببالي أنّ مـروة الطّيّبة ما أعفت رقبـتي رحمة بي، بل استبْقتها بالتّأكيد لعذاب الصّلب.

(1) ردّ البوّاب: لا يتماشـى مع الموقف وقد يعود ذلك إلى التّأثر بقصّة شـبيهة يردّ فيها النّزيل على البوّاب

1-16 محاولة الانتحار

لذا قفلت راجعا إلى غرفتي، وشرعت أفكّر في طريقة للتّعجيل بموتي. لكنّ الحظّ لم يهيّئ لي سلاحا قاتلا سوى سريري؛ فناجيته: "أي سريري العزيز الّذي عشتَ وتحمّلت معي كلّ تلك المحن، وتشهد على ما حدث البارحة. وبك وحدك يمكنني الاستشهاد، وأنا محلّ الاتّهام، لإثبات براءتي. أمدّني بوسيلة للخلاص تعجّل بي إلى العالم السّفليّ." شرعت، وأنا أقول ذلك، في سحب الحبل الّذي جُدل منه مفرشي، فقذفت طرفه على رافدة منغرزة تحت النّافذة تبرز ناتئة إلى الخارج وربطته، وعقدت الطّرف الآخر في خرتة متينة وارتقيت السّرير، وارتفعتُ ساعيا إلى حتفي. ثمّ أدخلت رأسي في الأحبولة وألقيت بنفسي. لكن لمّا أزحت برجلي الدّعامة الّتي كنت أعتمد عليها، ليعصر الحبل، بسقوط الثّقل، عنقي فيسدّ تنفّسي، × انقطع الحبل الرّثّ العتيق فجأة، وهويت من حالق على سقراط النّائم إلى جانبي، فجررته معي في تدحرجي.

1-17 مفاجأة سارّة

وإذا بالبوّاب يدخل بغتة في نفس اللّحظة زاعقا: "أين أنت يا رجل؟ كنت في جوف اللّيل تتعجّل الرّحيل بمنتهى التّهوّر والآن تغطّ في النّوم ملتفّا بالدُّثر." عند ذلك، وبسبب سقطتنا أو صياح النّاطور النّاشز، لا أدري، نهض سقراط مستويا وقال: "ما اجتناءً يكره المسافرون كلّ هؤلاء الملاعين نُدل الفنادق. لقد دخل هذا المتطفّل النّحس بدون إنذار، بنيّة سرقة شيء في اعتقادي،

فانتزعني من نومي العميق بزعيقه الفظّ وأنا منهوك القوى." فقمت خفّا مبتهجا، تغمرني فرحة لم أكن أحلم بها، وهتفت: "هوذا أيّها البوّاب الأمين صاحبي وأخي الّذي كنتَ البارحة تتّهمني بقتله جزافا، تحت تأثير السّكر"؛ وأقبلتُ على سقراط أعانقه. لكنّه صدّني بشدّة قائلا وقد زكمه الإفراز المغثي الّذي ضمّختني به تانك السّعلاتان*: "إليك عنّي بنتن المراحيض!" وأنشأ يسأل مازحا عن سرّ تلك الرّائحة. أمّا أنا، ففي انكسافي اختلقت حالا مزحة سخيفة وحوّلت اهتمامه إلى موضوع آخر. قلت مادّا يدي: "لنذهب الآن فنستمتعَ بلذّة السّير صَباحا!" ثمّ أخذت الصّرّة وبعد دفع أجرة الإقامة لعامل الفندق، انطلقنا على الطّريق.

1-18 رحلة ممتعة

كنّا قد قطعنا مسافة جيّدة لمّا بزغت الشّمس مضيئة كلّ شيء. فأخذت أتأمّل بفضول رقبة رفيقي، ناحية الجانب حيث رأيت السّيف يُغرز. وأقول لنفسي: "يا أخبل حلمتَ بكوابيس فظيعة وأنت تحت تأثير الرّاح وغطّة الأقداح. هذا سقراط سالما صحيحا معافًى. أين الجرح والإسفنجة وأين أخيرا أثر تلك الطّعنة المستجدّة النّجلاء؟" ثمّ خاطبته: "يؤكّد الأطبّاء الثّقاة محقّين أنّ من ينامون تقئين بالطّعام والنّبيذ يرون أحلاما مروّعة غمّاء. أنا مثلا، لإفراطي مساء أمس في الشّرب، حملت لي ليلتي اللّيلاء رؤى مشؤومة، حتّى لإخال نفسي إلى هذه اللّحظة مبلّلا وملطّخا بدم بشريّ." فردّ مبتسما: "لكنّك بشرفي لم ترشّ بدم، بل ببول. أمّا أنا فقد تراءى لي في المنام أنّي أُذبح. وأحسست فعلا

بألـم فـي رقبتي وخُيّل إليّ أنّ قلبي يُسـتلّ. وإلـى هذه اللّحظة يضيق نفَسـي وترتجـف ركبتاي وتترنّح خطاي، وأرغب في شـيء من الطّعام لأستردّ قواي." قلت: "هوذا الفطور جاهزا بانتظارك". وعلـى الفـور نزعت المزود من على عاتقي، وأسـرعت أمدّ له الخبز والجبن مضيفا: "هيّا نجلس تحت هذه الدّلبة."

1-19 شربة ماء

تناولت شيئا من نفس الزّاد ونظرت إليه يأكل بشراهة؛ فرأيته يمتقع ويعتريه شـحوب كصفرة البقـس وتخذله قواه. ويغور لون الحياة من محيّاه. حتّى أنّي من خوفي غصصت مستحضرا صورة جنّيتي النّقمـة* اللّيليّتين. وتلبّكتُ وسـط حلقي على صغرها، قطعة الخبز الّتي تناولتها. لا تسـتطيع المضيّ نزولا ولا التّراجع صعودا(1). وكانت ندرة السّـالكين نفسـها تزيد خوفي(2). وبمن يُشـتبه ترى في قتل أحد رفيقي سفر، سوى الآخر؟ × لكنّه كان فـي الحقيقة قد ظمئ بعدمـا أصاب من الزّاد شـيئا كثيرا ولم يطق على الشّـرب صبرا. إذ كان قد التهـم بنهم حظّا وافرا من جبن شـهيّ؛ وكان يسـيل الهوينى غير بعيد من أصل الشّـجرة جدول وديع، يحاكي بصفحتـه الغدير، وبصفائه اللّجين أو البلّور. هتفـت: "هيّا اروِ غليلك مـن ماء هذا النّبع الأزكـى من الحليب"؛ فنهـض ووجـد بعد قليل حاشـية مـن الضّفّـة أكثر اسـتواء،

(1) تلبّكت...صعودا: admodum/modicum, demeare/remeare سـجع مع جناس ومقابلة.

(2) ندرة السّالكين تزيد خوفي: توحي الجملة بمعنى ثان: زادني خوفا تفكيري بأنّ قادمين سيمرّون بعد قليل.

واقتـرب من الماء متحرّقا(1). لكن ما كاد يلامس بطرف شـفتيه صفحة الماء حتّـى انفتح في رقبته جرح فاغر غائر، وانبثقت منه الإسـفنجة فجـأة مرفوقة بقليـل من الدّم. وانكبّ الجسـم في النّهر جثّة هامدة. لولا أن أمسـكته من إحدى قدميه وسـحبته إلى الضّفّة بمشقّة. فبكيت قدر ما استطعت صاحبي المسكين وواريته صعيدا رمليّا قرب النّهر مثوى أبديّا. ثمّ إنّي، في توجّسـي وخوفي على نفسـي، فررت عبر الفلـوات المنعزلة النّائية، وهأنذا الآن بعدما هجرت الأهل والأوطان يعذّبني الشّعور بوزر قتل نفس بشـريّة بنحو ما. وقد اتّخذت لي منفًـى اختياريّا بإيتولية* حيث أقطن الآن بعد عقد قراني من جديد."

1-20 تقييم قصّة أرسطومان

تلك كانت قصّة أرسـطومان؛ أمّـا صاحبه الّذي كان يرفض في البداية تصديق حديثه بارتياب وتعنّت، فقال:

"لا شـيء حقًّـا أخرف من هذه الخرافة، ولا أسـخف من هذه الكذبـة". ثمّ اسـتأنف ملتفتـا إليّ: "وأنـت الرّجل الكـريم، كما أتوسّـم من هندامك وسـمتك(2). أتصدّق هذه الخرافة؟" أجبت: "فيما يخصّني لا أحسـب شـيئا مسـتحيلا؛ بل كلّ شـيء يقع للبشـر وفق مشـيئة القدر. لي ولـك ولكلّ الناس تحـدث يوميًّا أمور عجيبة وشـبه مسـتحيلة، ولكنّها تفقـد مصداقيّتها إن تُـروى للجاهل. أمّا أنا فأصـدّق صاحبنا وأذكر شـاكرا أفضاله(3).

(1) نهض...متحرّقا: تجانس صوتيّ alliteration بالباء المعجمة.

(2) هندامك وسمتك: habitus/habitudo جناس مطلق مع مقابلة.

(3) شـاكرا أفضالـه: gratas gratias جناس مختلـف (كان يمكنه أن يضيف

إذ سلاّنا قَصصه الممتع بظرفه وطرافته، بحيث قطعت طريقا وعرة وطويلة دون عناء ولا سآمة. بل أظنّ ضعينتي سعدت هي أيضا بجميله، إذ ها قد وصلتُ إلى باب المدينة الّذي ترى دون أن أرهقها، محمولا لا على ظهرها بل على أذنيّ."

1-21 السّؤال عن ميلون

هنا كان منتهى حديثنا ودربنا المشترك، فقد دار رفيقاي إلى اليسار نحو ضيعة(1) قريبة. أمّا أنا، فدخلت أوّل فندق رأيته أثناء مسيري، وسألت العجوز صاحبة المحلّ: "هل هذه المدينة هيباتة*؟" فهزّت رأسها بالإيجاب(2). استأنفت: "هل تعرفين ميلون، أحد أوائل القوم هنا؟" فاستضحكت ثمّ قالت: "يُعَدّ الأوّل(3) حقّا صاحبك ميلون هذا الّذي يقيم خارج الأسوار والمدينة كلّها." قلت: "دعي السّخرية يا أمّاه، وخبّريني، أرجوك، عن الرّجل ومحلّ سكناه"؛ فردّت: "أترى هناك تلك النّوافذ المتّجهة شطر المدينة، وفي الجهة المقابلة بابا مطلاّ على زقاق محاذ؟(4) × هناك يقطن صاحبك ميلون، وهو رجل ذو أموال كثيرة وأملاك وفيرة، لكنّه

gratuitas لأنّهم لم يتوقّفوا في حانة ليدفع للرّجل أجر قَصصه، سيما وأبوليوس يحبّ التّراكيب الثّلاثيّة!)

(1) ضيعة: في النّصّ يستخدم أبوليوس التّصغير لكن بدون المعنى المقترن عادة بالتّصغير كما يفعل غالبا. لكن للتّصغير معنى أساسيّا في مواضع أخرى، مثلا وصف فوتيس وهي تعدّ الطّعام 2: 7 حيث يعني التّحبيب.

(2) هزّت رأسها بالإيجاب: ينتقل أبوليوس هنا من الماضي إلى مضارع السّرد في نفس الجملة ليجعل الأحداث حاضرة أمامنا، ونجد هذا الأسلوب (مع فنّيّات أخرى لجذب انتباه القارئ) في عدّة مواضع أخرى.

(3) يُعَدّ الأوّل: تلاعب لفظيّ حول كلمة "الأوّل" فهي تعني: الوجيه، أمّا هنا فمعناها مكانيّ وتحقيريّ.

(4) بابا مطلاّ: fores/foris (إلى الخارج/ الباب) جناس مختلف.

مرذول لدى الجميع لشحّه المفرط وخسّته القبيحة. مواظب على ممارسة الرّبا الفاحش، لقاء رهن من الذّهب أو الفضّة، ومنطو في بيته الضّيّق، دائب الحرص على قروشه، وله زوجة هي كذلك شريكة رذيلته. لا يعول لديه سوى جويرية، ويسير دوما في هيئة المتسوّل." رددت ضاحكا: "حقًّا لقد رعاني صديقي ديمياس* بتبصّر واعتناء، إذ عهد بي إلى رجل كهذا لن أخشى في ضيافته قُتار طبيخ ولا شواء."

1-22 لقاء ميلون

قلت ذلك وسرت متباطئا فاتر الهمّة حتّى وصلت إلى البيت، فأخذت أطرق الباب الموصد بإحكام وأنادي. عندئذ تقدّمت فتاة في خضِر العمر وقالت: "مهلا يا من تقرع بابنا بكلّ هذا العنف، مقابل أيّ رهن تبتغي الاقتراض؟ أم تراك تجهل دون سواك أنّا لا نقبل ضمانا غير الذّهب والفضّة؟" × أجبت: "تفاءلي بي خيرا وأجيبيني بالأحرى: هل أجد سيّدك الآن في البيت؟" ردّت: "طبعا، لكن فيم سؤالك؟" قلت: "أحمل إليه رسالة توصية كتبها له ديمياس الكورنتيّ*"؛ فردّت: "انتظرني هنا، في نفس المكان، ريثما أبلّغه." ولم تتمّ كلامها حتّى أوصدت الباب مجدّدا ودلفت إلى الدّاخل؛ ولم تلبث أن عادت وفتحت لي باب البيت قائلة: "سيّدي يطلبك." تقدّمت، فوجدته مفترشا سريرا(1) مفرط الصّغر وعلى أهبة العشاء. وحذو قدميه تجلس زوجته، وقد وُضعت إلى جانبه سُفرة فارغة، أشار إليها قائلا: "تفضّل." أجبت: "شكرا"؛

(1) السّرير: كان اليونان والرّومان يأكلون متّكئين على سرر أمام مائدة والنّساء والأبناء عند أقدامهم.

وقدّمت له رسالة ديمياس فورا. فقرأها بعجل وهتف: "أنا مدين لصديقي ديمياس بفضل إمدادي بضيف مثلك."

1-23 استقبال حارّ

ثمّ أمر زوجته بالتّنحّي ودعاني إلى الجلوس في مكانها، وأمسك بطرف ثوبي وجذبني، إذ لم أزل متردّدا في استحياء، قائلا: "اجلس هنا. فلخوفنا من اللّصوص لا يمكننا إحضار مقاعد وأثاث كاف". ففعلت. ثمّ خاطبني: "كنت سأشيم بحقّ من وسامة مظهرك وحسن خفرك وحدهما كرم أرومتك. لكنّ صديقي ديمياس زاد فأحاطني في رسالته علما بنفس تلك المحاسن؛ فأرجو ألاّ تزدري ضيق بيتنا المتواضع. ستكون لك تلك الغرفة المحاذية هناك مُقاما مقبولا؛ فلتستطب الإقامة عندنا. وإنّك لعمري ستجعل هذا البيت بشرف مَقامك أكبر وأرفع، وستكتسب منقبة مجيدة إن ترض ببيتنا الصّغير اتّساءً بثيسيوس* العظيم، سميّ والدك(1)، الّذي لم يترفّع عن قرى العجوز هيكالة* على تواضعه." ثمّ دعا الخادمة وقال: "فوتيس*، خبّئي في موضع أمين من هذه الغرفة متاع ضيفنا. وأخرجي في نفس الوقت من خزانة المؤن زيتا ليدّهن به ومناشف ليمسح بها وغير ذلك ممّا يصلح لنفس الغرض؛ ثمّ خذي ضيفي إلى أقرب حمّام، فهو تعِبٌ من رحلته الشّاقّة الطّويلة."

1-24 في سوق المؤن

عند سماعي ذلك قلت، مفكّرا في طباع ميلون وبخله، وراغبا

(1) ثيسيوس سميّ والدك: بالطّبع لا ينبغي أن تؤخذ الإشارة إلى اسم أب لوقيوس، أو أمّه 2: 2 أو وطنه أو انتسابه إلى أسرة بلوتاركوس 1: 2 و2: 3 مأخذ السّيرة الذّاتيّة للكاتب. انظر الكتاب 11

في استمالته بنحو أوثق: "لا حاجة بنا(1) يا سيّدي الفاضل إلى هذه الأشياء فقد صحبتنا طوال الطّريق. وحتّى الحمّام سنسترشد عنه بسهولة؛ بصراحة أهمّ الأولويّات عندي حصاني الّذي حملني بعزم. فخذي هذه النّقود يا فوتيس واشتري له كلأ وشعيرا." بعدما أتمّت هذه التّرتيبات وخُبّئت أمتعتي في تلك الغرفة، قصدت وأنا في طريقي إلى الحمّام السّوقَ أوّلا لأتدبّر أمر عشائنا. رأيت هناك سمكا وفيرا معروضا. وبعد الاستفسار عن السّعر والمساومة، اشتريت بعشرين دينار ما عُرض بمائة درهم(2). لقيني وأنا أغادر السّوق بيثياس*، قريني في الدّراسة بأثينة الأتيكيّة*، الذي تعرّفني بعد الأمد الطّويل، فأقبل عليّ هاشّا باشّا وقال وهو يحتضنني ويقبّلني بمودّة: × "عزيزي لوقيوس*، مرّ دهر لعمري لم نرك منذ غادرنا مقاعد الدّراسة عند المعلّم كليتيوس*. فما غاية رحلتك؟" أجبت: "غدا تعرف؛ لكن ماذا أرى؟ أهنّئك بنيل المنى: أرى معك الدّرك والمحاصر وكلّ شارات القضاء." قال:"أعتني بالتّموين وأشغل خطّة المحتسب(3). وإن تبغ شراء شيء فأنا بخدمتك في كلّ حين"؛ فأشرت برأسي بالنّفي إذ سبق أن اقتنيت من السّمك ما يكفي للعشاء. لكنّ بيثياس رأى

(1) لا حاجة بنا: استخدام صيغة الجمع، الّتي قد تعبّر أيضا عن المفرد، ربّما لأنّه يقصد خادمه معه.

(2) الدّرهم: sestertius عملة فضّيّة تساوي دانقين ونصفا والدّينار denarius عملة فضّيّة تساوي عشرة دوانيق، كما يظهر من اسميهما (لكنّ دينار الخلافة الإسلاميّة رغم اشتقاق اسمه من هذه العملة كان ذهبيّا عادة). أمّا المثقال الذّهبيّ aureus فيساوي 400 دانق، أي 100 درهم.

(3) المحتسب: aediles شبيه بصاحب الحسبة، أمين السّوق، كان في رومية مسؤولا عن الشّرطة البلديّة والتّموين ومراقبة الأسواق وكذلك عن تنظيم بعض الألعاب وحفظ سجلاّت الطّبقة الشّعبيّة.

السّلّة فخضخض السّمك ليتفحّصه ثمّ سألني: "كم دفعت مقابل سقط الشّباك هذا؟" أجبت: "انتزعته من البائع غلابا بعشرين دينار."

1-25 أحشفا وسوء كيلة؟

ما إن سمع ذلك حتّى أمسك بيدي وأعادني إلى السّوق، وسأل: "ومن أيّ من هؤلاء ابتعت هذه السّفاسف؟" أشرت إلى شويخ كان يجلس في زاوية؛ فازدجره فورا بلهجة صارمة بمقتضى سلطته الاحتسابيّة: × "ويحكم، لم تعودوا تراعون حتّى أصحابنا، بل ولا حتّى ضيوف مدينتنا! تسعّرون بمثل هذه الأثمان المشطّة هذا الحشف الرّديء. أتريدون أن تحيلوا زهرة مدائن تسّالية* من غلاء المعيشة جلمودا صفصفا؟ لكنّك لن تفلت من عقوبتي. سأريك كيف يُقمع الغشّاشون تحت سلطتي"، ونثر أسماكي على الأرض، ثمّ أمر دركيّا يرافقه بدحسها وسحقها تحت قدميه. بعد ذلك التفت صديقي بيثياس ناحيتي راضيا عن صرامته وقال مودّعا: "عزيزي لوقيوس، هذه الإهانة تكفي شيخنا في ظنّي." لم يسعني، وقد أدهشني ما جرى بل أذهلني تماما، سوى متابعة سيري إلى الحمّام صفر اليدين من النّقود والعشاء معا، ثمّ عدت بعد الاغتسال إلى بيت مضيّفي ميلون فأويت إلى غرفتي مباشرة.

1-26 مأدبة ميلون

وإذا بالخادمة فوتيس تقول: "سيّدي يطلبك"؛ لكنّي اعتذرت بأدب، لعلمي بتقاليد ميلون التّقشّفيّة، متعلّلا بحاجتي إلى

الاستراحة من وعثاء السّفر لا بالطّعام بل بالمنام. لمّا بلّغتُه اعتذاري، أتى بنفسه، ومدّ إليّ يده محاولا جرّي برفق. ولمّا رأى تردّدي وتمنّعي بلين وأدب قال: "لن أبرح الغرفة حتّى تتبعني"، مردفا إلى قوله أغلظ الأيمان. فاستسلمت لإلحاحه مكرها، وتبعته إلى سريره حيث أجلسني وسألني: "كيف حال صديقنا ديمياس؟ وزوجته؟ وأبنائه؟ وخدمه وحشمه؟" × فقصصت عليه أخبارهم جميعا؛ ثمّ استخبر بالتّدقيق عن أغراض رحلتي؛ فسردتها له بالتّمام. ثمّ طفق يستوضح عن أخبار بلدي وأعيانه ثمّ واليه بأدقّ التّفاصيل(1) . ولمّا رآني، من شدّة تعبي من تلاحق القصص مضافا إل مشقّة رحلتي المضنية، أتوقّف وسط الكلمات مثقلا بالنّعاس، بل وأتلجلج في عيّ مغمغما بالكلمات المستعصية، قبل أخيرا أن يدعني آوي إلى فراشي. هكذا أفلتّ أخيرا من مأدبة عجوزنا المزعج الجزلة كلاما والهزيلة طعاما إلى النّوم، مثقلا بغير طعام، متعشّيا فقط على القصص، وعدت إلى غرفتي حيث سلّمت جسمي المكدود للجمام المنشود.

(1) أسئلة ميلون: كنادرة الأعرابيّ الذي راح يسأل صاحبه عن أهله وجمله وكلبه ولا يدعوه إلى طعامه (أوردها في ظنّنا القلقشنديّ)، أو لعلّه فعل كعتبة بن جبير القائل عن ضيفه حسب ما جاء في ديوان الحماسة لأبي تمّام: "أحدّثه إنّ الحديث من القرى/ وتعلم نفسي أنّه سوف يهجع"، وذاك لعمري منتهى الجود!